

الفصل الثامن عشر

الاهتمام بالمستقبل وبثمار العمر والحذر من الغفلة

البحث الأول:

المستقبل ونظرة الإنسان إليه

لا بدّ من نظرة إلى المستقبل، نظرة أملٍ مشرقٍ متفائلٍ بالخيرات... فالإنسان بفطرته مشدودٌ إلى المستقبل، لا يستطيع أن يغفله أو يجعله من المهملات، وكما رُزق الإنسان ذاكرة تربطه بالماضي وما فيه، رُزق أيضاً مخيلة تصور له المستقبل وما يتوقع فيه. ومن خصائص المستقبل أنه غيب مجهول، لا يعرف أحدٌ ماذا يُخبئ في صدره من أسرار، وماذا يضمّر له من خير أو شرٍّ؟ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾^(١).
ومن خصائصه: أن كلَّ آتٍ فيه قريب، مهما ظن المرء أنه بعيد أو متراخ، ولهذا قيل: إن مع اليوم غداً، وإن غداً لناظره قريب، وقال الله تعالى في القرآن: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾^(٢).

والعاقل هو من يأخذ أهبتة للمستقبل، ويتهيأ للأمر قبل وقوعه، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُؤاَ اللّٰهِ وَلَتَنْظُرَنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^(٣).

والذين يظنون أن الدين يعلق الإنسان بالماضي يُخطئون فهم جوهر الدين وحقيقته.

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٨.

إنّ مهمة الدّين الكبرى هي إعداد الإنسان لحياة الخلود، أي: إعداده للمستقبل،
لدارٍ هي خيرٌ وأبقى من هذه الدار.

فالتّظرة المستقبلية أساسية في أصل الدّين.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «إنّ العبدَ بينَ مخافتين: بينَ أجلٍ قد مضى لا
يُدري ما الله صانعٌ فيه، وأجلٍ قد بقي لا يُدري ما الله قاضٍ فيه. فليأخذِ العبدُ من نفسه
لنفسه، ومن دنياهُ لآخرته، ومن الشّيبية قبل الهرم، فوالذي نفسي بيده، ما بعدَ الموتِ
من مُستعْتَبٍ، وما بعد الدنيا من دارٍ إلّا الجَنّةُ أو النَّارُ»^(١).

وليس معنى هذا أنّ الإنسان المتدين لا يهتم إلّا بمستقبله الآخروي، مُغفلاً
مستقبله الدّنيوي. . . كلا. . . فالمسلم قد علّمه الإسلامُ أن يحتاط لغدوهِ، ويعدّ له عُدَّتَهُ،
ويأخذُ حذرَهُ، ويتخذُ الأسبابَ المعينة له، وسواء أكان ذلك في أمور الدّين أم أمور
الدّنيا.

وإذا كان الرّسول ﷺ هو القدوة العُلّيا للمؤمنين، فنحنُ نجدُهُ يبحثُ عن مستقبل
دعوته حين بايَعَ الأوسَ والخزرجَ، وفكّر في أمرِ الهجرة، سعيّاً وراءَ قاعدةٍ صلبة
لإقامة شريعة الإسلام ومجتمع الإسلام.

وهل كانت بيعة العقبة الأولى ثم الثانية، ثم الإعداد للهجرة إلى يثرب إلّا عملاً
دؤوباً، وتخطيطاً محكماً لمستقبل الإسلام؟!.

وفي أمور الدنيا نجدُهُ ﷺ يدخِرُ لأهله قوتَ سنةٍ، ولا يرى في ذلك مُنافاةً للتّوكّل
على الله، لأنّه لا يتنافى مع الأخذِ بالأسباب.

وهكذا يُعلّمنا رسول الله ﷺ كيف نجتمع بين الدّين والدّنيا.



(١) تفسير القرطبي، ج ١٨/١١٦.

البحث الثاني:**عُمر الإسلام بين الماضي والحاضر**

الوقتُ أو الزَّمَنُ الذي يعيش فيه الإنسانُ ينقسم إلى ثلاثة أقسام: ماضٍ، وحاضرٍ، ومستقبلٍ، أو الأمس واليوم والغد.

والنَّاسُ في علاقتهم بالزَّمَن أو الوقت في أجزائه هذه عدَّة أصناف يقفون عادة بين طرفي الإفراط والتفريط.

فهناك عبيد الماضي، وبجوارهم عبَاد الحاضر، وإلى جانبهم سدة المستقبل.

وهناك المعتدِلون المُتوازِنون، الذين يعطون لكلِّ منه حَقَّهُ، بلا طغيان ولا إفسار، وقليلٌ ما هم!

المتعلِّقون بالماضي:

فمن النَّاس من لا يكادون يعرفون من الزَّمَن إلاَّ الأمس، فهُم يعيشون في الماضي وحده، لا يشعرون بغيره، ولا يهتمُّون بسواه من يوم مشهودٍ، أو غدٍ منشودٍ، سواء كان هذا ماضيهم الشخصي شأن «الرومانسيين» الهائمين، أم ماضي أسرهم وآبائهم، أو ماضي أقوامهم وأممهم، شأن الغلاة من «العظاميين»، و«التراثيين»؟!.

ولهذا الصَّنَف من عبيد الماضي عدَّة صورٍ يظهرُ فيها:

١ - صورة من يحيا مفاخرًا به، معتزًّا بأمجاده، دون أن يضيف جديدًا أو يُقدِّم مزيدًا، يصلُّ حاضره بماضيه، ويومه بأمسه، فهو دائماً يقول: كُنَّا وكان آباؤنا وأجدادنا، ولا يجد ما يقولُ عنه: فنحنُ فعلنا كذا، أو أنجزنا كذا، أو قدَّمنا كذا، فهم هائمون في الوهم؟! . ولمثل هؤلاء يقول المتنبي:

لئن فخرتُ بآباءِ ذوي حَسَبٍ لقد صدقتُ، ولكن بئس ما ولَّدوا

وقال الآخر:

كُنْ ابْنًا مِّنْ شَيْئَةٍ وَاتَّسِبْ أَدَبًا يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ
 إِنَّ الْفَتَى مَن يَقُولُ: هَا أَنَذَا لَيْسَ الْفَتَى مَن يَقُولُ: كَانَ أَبِي
 إِنَّ الْاعْتِزَازَ بِأَمْجَادِ الْمَاضِي، وَمَآثِرِ الْأَجْدَادِ، أَمْرٌ مَحْمُودٌ، إِذَا دَفَعَ إِلَى إِكْمَالِ مَا
 بَدَأُوا، وَالْإِقْتِدَاءَ بِهِمْ فِي خَيْرٍ مَا فَعَلُوا، وَلَكِنِ الْوُقُوفَ عِنْدَ التَّغْنِي بِذَلِكَ لَوْ أَنَّ
 السَّلْبِيَةَ لَا يُقَدِّمُ فِي بِنَاءِ الْأُمَمِ شَيْئًا.

٢ - ويقرب من هذه الصورة: صورة «التراثيين» الذين يدعون إلى تقديس التراث
 بكل ما فيه من صوابٍ وخطأٍ وجدِّ وهزلٍ، معتبرين أنَّ الماضي دائماً خيرٌ من
 الحاضر، وأنَّ الأول لم يترك للآخر شيئاً، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان.

مع أنَّ الواجب هنا: تحديد مفهوم التراث، ثم تقويمه بعد ذلك. فمن الناس من
 يدخل في مفهوم التراث عندنا نحن المسلمين: القرآن والسنة، وهذا ما لا خيار لنا في
 الالتزام به، بموجب عقد الإيمان ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ
 يَكُونُوا لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (١).

فالجانب الإلهي من التراث لا يُوضع موضع الاختبار أو التردد. أمَّا الجانب
 البشري، فهو الذي يُوضع في الغربال، ويُميّز منه ما يُقبلُ وما يُردُّ، فمنه ما له صفة
 المحلية لا العالمية، فهو يحمل طابع موضعه الذي ظهر فيه، ولا يصلح لمكان آخر،
 ومنه ما يحمل طابع زمنه ولا يصلح لزمنٍ آخر، وهكذا.

ومن هنا كانت الدعوة إلى «المعاصرة» بجوار دعوة «الأصالة» أو المحافظة على
 التراث، والصحيح أنَّ المعاصر يجب ألا تغفل عن الأصالة.

٣ - وهناك صورةٌ من يعيش في الماضي، نادماً عليه، متحسراً على ما فاتته منه،
 مردداً دائماً دائماً عبارات التَّحَسُّرِ والتَّمَنِّي، ليتني فعلتُ وليتني تركت، ولو كنت فعلت
 كذا لكان كذا، ولو أنني قدمت هذا وأخرتُ ذاك، لكان كذا وكان كذا.

وهذا اللون من التفكير أو الشعور، يلفُّ الإنسان بمسوح الكآبة النفسية ويحييه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

في نكدي وقلقي لا مُبرر له، ولا فائدة منه، ويُصيبه بالسلبية المدمرة، ولهذا قيل: الاشتغال بفوات وقتٍ ماضٍ تضييع وقتٍ ثانٍ!! وإن كلمة «لو كان كذا لكان كذا» من عمل الشيطان!

ولا غزوَ أن أنكر القرآن والسنة هذا السلوك، يقول الله تعالى بعد ما أصاب المسلمين في غزوة أحد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا صَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْمَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١).

وقال الرسول الكريم ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خيرٍ، احرص على ما ينفعك واستعين بالله ولا تعجز، ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان» (٢).

فالإيمان بقدر الله تعالى يدخل هنا عاملاً إيجابياً مؤثراً، يتزرع الإنسان من سلبية «لو» و«ليت» ونحوها إلى إيجابية العمل والبناء للمستقبل. وفي هذا تغنى الشعراء، وإن من الشعر لحكمة.

ليت شعري، وأين مني ليت؟ إن ليتاً، وإن لواء عناء
وليس براجع ما فات مني ا بلهف ولا بليت، ولا، لو أني
سبقت مقاديرُ الإله وحكمه فأرخ فؤادك من لعل ومن لو

مواجهة المستقبل بالأمني والأحلام:

ويُقابل هذا الموقف السلبي من المستقبل، موقف اليأس والقنوط، موقف، سلبي مثله، وهو مواجهة المستقبل بالأمني المجردة، والأحلام الفارغة لا بالعمل والتخطيط والتركيز.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.

(٢) صحيح مسلم برقم ١٦٦٤.

والأمامي لا تبني مجداً، ولا تُحقق أملاً، بل هي كما قال كعب بن زهير: إنَّ
الأمامي والأحلام تضليلٌ.

قال رجل لابن سيرين: إني رأيتُ في منامي أنني أسبح في غير ماء، وأطيرُ بغير
جناح! فما تفسيرُ هذه الرؤيا؟ فقال له: أنتَ رجلٌ كثيرُ الأمامي والأحلام!!.

وقال عليُّ بنُ أبي طالب لابنه: إياك والالتكال على المُنَى، فإنها بضائع التوكي
أي: الحمقى!. وقال الشاعر:

أَعْلَلُ بِالْمُنَى قَلْبِي لِعَلِي أُرُوحَ بِالْأَمَانِي الِهِمَّ عَنِي
وَاعْلَمُ أَنَّ وَصْلَكَ لَا يُرْجَى وَلَكِنْ لَا أَقْلُ مِنَ التَّمْنِي
وقال آخرُ:

وَلَا تَكُنْ عَبْدَ الْمُنَى، فَالْمُنَى رُؤُوسُ أَمْوَالِ الْمَفَالِيسِ
وَلَا غَرَوْ أَنْ أَنْكَرَ الْقُرْآنُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى تَعْلَقُهُمْ بِالْأَمَانِي
في دخول الجنة بغير أسبابها، وموجباتها من الإيمان والعمل.

يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ
قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ
أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (١).

ولم يقف القرآن عند حدِّ الإنكار على أهل الكتاب، بل أشرك معهم المسلمين
ممن حدّواهم ممن ظنَّ أنَّ مجردَ التسمي بالإسلام أو الانتساب إليه، يُنجيه عند
الله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْرَ بِهِ وَلَا
يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١١٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١١٤﴾﴾ (٢).

إنَّ القرآن يُنكر الاعتمادَ على الأمامي، ولكنّه لا ينكر الرجاء، وفرق بين

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١١١ - ١١٢.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ١٢٣ - ١٢٤.

الأميرين؛ فالرجاء ما قارنهُ عملٌ، وإلا فهو أمنية. ولهذا اعتبر الحديث النبوي من العجز والحُمق اتباعَ هوى النفس، والجري وراء شهواتها، اتكالا على عفو الله تعالى، ومغفرته وسعة رحمته مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ مَّا سَأَلْتُمَهَا لِلَّذِينَ يُنْفِقُونَ يُؤْتُونَكَ الرِّكَوَةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

وفي هذا جاء الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمتى على الله الأمانى»^(٣).

وقال بعض الصالحين: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا اتباع للسنة نوع من الغرور، وارتجاء رحمة الله مع المعاصي حُمق وجهل.

وقال الحسن: إن قوماً ألتهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، يقول أحدهم: أحسن الظن بربي! وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل له، وتلا قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ مَنِ الْخَسِرِينَ﴾^(٤).

وكان يقول أيضاً: يا أيها الناس، اتقوا هذه الأمانى، فإنها أودية التوكي فيحلون فيها. فوالله ما أتى الله عبداً بأمنية خيراً في الدنيا ولا في الآخرة.

لا بد من نظرة إلى الماضي:

للاعتبار بأحداثه، والاتعاظ بمصاير أممه، وبسنن الله فيهم فهو وعاء الأحداث، ومخزن العبر.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٣) رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه، وفي سننه ضعف، وصححه الحاكم، فردّه عليه الذهبي،

انظر ضعيف الجامع الصغير برقم ٤٣٠٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

الْكَذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴿١﴾ إِنَّ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا
بَيْنَ النَّاسِ ﴿٢﴾ .

إن لحظة المحاسبة للنفس لتعدّ من لحظات الارتقاء الإنساني، حيث يجرد الإنسان من عقله حاكماً على شهوته، ومن ضميره حاكماً على هواه، ويجعل الإنسان المؤمن من إيمانه شرطياً يُراقب ومفتشاً يُحاسب، وقاضياً يحكم وبهذا يرتقي الإنسان من حالة [النفس الأمارة بالسوء] إلى حالة [النفس اللوامة] التي تلوم صاحبها إذا أقدمت على محظور، أو قصّرت في فعل مأمور.

وفي الحديث الذي ذكرناه من قبل: «ينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات، ومنها: ساعة يُحاسبُ فيها نفسه».

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزنَ عليكم».

وكان رضي الله عنه يضرب قدميه بالدرّة إذا جنّ الليل، ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟.

ويقول التابعي الجليل ميمونُ بنُ مهران: التقيُّ أشدُّ حساباً لنفسه من سلطانٍ غاشمٍ، ومن شريكٍ شحيحٍ.

ويقول الحسنُ: المؤمن قوَّامٌ على نفسه، يُحاسبُها لله. وإنما خفَّ الحسابُ على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة! ثم فسّر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يُعجبه فيقول: والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي، ولكن هيهات حيل بيني وبينك! وهذا حساب قبل العمل.

(١) سورة الشورى، الآية: ١٣٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

وهذا تربية راقية للنفس، يسمو بها صاحبها إلى أعلى درجات الفضل والإحسان والبرِّ والأخلاق والآداب^(١).



البحث الثالث:

طول العمر وثماره اليانعة

مما لاشك فيه أنّ الإنسان بفطرته يُحِبُّ الحياةَ، ويُحِبُّ أن يطولَ عُمرُهُ فيها، بل يُحِبُّ الخلودَ فيها لو استطاعَ! ومن باب هذه الغريزة غريزة - حبّ الخلود - دخل إبليس إلى أبي البشر آدم، ودلَّهُ بغروره ليأكلَ من الشجرة التي نُهيَ عنها ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَنْ لَكَ لَا يَبْلَى﴾^(٢)، فغرَّرَ به بهذه الأمانة الغريزية فاغترَّ به.

والدِّينُ نفسهُ يعتبرُ طولَ العُمُرِ نعمةً إذا استخدم في نصرَةِ الحقِّ، وعملِ الخيرِ. سئل النبي ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فقال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ»^(٣).

ولكن مما لاشك فيه أيضاً، أنّ الموت قد نَعَّصَ للناس الحياةَ، فكثيراً ما اختطفَ الشَّابَّ في ريعان شبابه، والعروسَ في أوَّل أيام عُرسِهِ، والوحيدَ المدللَّ من بين يدي أهله، والغنيَّ المرفَّه من أحضان نعمته ورفاهيَّته، والحاكِمَ المرهوبَ من بين حرسِهِ وحشمِهِ، ولهذا سُمِّيَ «هازِمُ اللذات» و«مُفرِّقُ الجماعات».

وإذا كان الموت خاتمة المطاف ونهاية الحياة، فالعمر لا ريبَ جدَّ قصير مهما طالَ بالإنسان الأمل، ومدَّ له في الأجل، إنّما هو أيامٌ معدودة، وأنفاسٌ محدودة، يقطعها الموت بغير استئذان، ويترك صاحبها في خبر «كان».

(١) من كتاب الوقت في حياة المسلم للدكتور القرضاوي.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٠.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والطبراني بإسناد صحيح والحاكم والبيهقي في

الزهد وغيره كما في الترغيب للمنزدي.

حَكْمُ الْمَنِيَّةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارٍ مَا هَذِهِ الدَّنْيَا بَدَارٍ قَرَارٍ
 بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانَ فِيهَا مَخْبِرًا حَتَّى يُرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
 وَفِي الْأَثَرِ: «عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأُحِبِّ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ، وَاعْمَلْ مَا
 شِئْتَ فَإِنَّكَ مُجَزَى بِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْهُ»^(١)!

وَصَدَقَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ حَيْثُ قَالَ:

بَيْنَ عَيْنِي كُلِّ حَيٍّ عِلْمُ الْمَوْتِ يَلُوحُ
 نَخٌ عَلَى نَفْسِكَ يَا مَسْكِينُ إِنْ كُنْتَ تَنُوحُ
 لَتَمُوتَنَّ وَإِنْ عُمِّرْتَ مَا عُمِّرَ نُوْحُ!!

وَلَمْ يَسْتَطِعِ الطَّبُّ الَّذِي وَصَلَ إِلَى زَرْعِ قَلْبِ مَكَانِ قَلْبِ، وَلَا الْعِلْمُ الَّذِي وَصَلَ
 بِالْإِنْسَانَ إِلَى سَطْحِ الْقَمَرِ، أَنْ يِقَاوِمَ الْهَرَمَ، وَيُعِيدَ لِلشَّبَابِ بَعْدَ أَنْ رَدَّ إِلَى أَرْضِ
 الْعُمُرِ، وَصَدَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، إِلَّا
 الْهَرَمَ»^(٢).

وَإِذَا كَانَ عَمْرُ الْإِنْسَانِ مَحْدُودًا بِهَذِهِ الصُّورَةِ، فَاتَى لَهُ أَنْ يُطِيلَهُ، وَكَيْفَ
 يَسْتَطِيعُ؟! .

وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَمْرَ الْحَقِيقِيَّ لِلْإِنْسَانِ لَيْسَ هُوَ السَّنِينَ الَّتِي يَقْضِيهَا مِنْ يَوْمِ الْوِلَادَةِ
 إِلَى يَوْمِ الْوَفَاةِ فَحَسَبَ بَلْ عَمْرُهُ الْحَقِيقِيُّ بِقَدْرِ مَا يُكْتَبُ لَهُ فِي «رَصِيدِهِ» عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عَمَلِ
 الصَّالِحَاتِ وَفِعْلِ الْخَيْرَاتِ. وَلَا غَرْوُ أَنْ تَجِدَ إِنْسَانًا يَعْمُرُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ، وَلَكِنْ
 رَصِيدُهُ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ وَنَفْعِ عِبَادِهِ صِفْرٌ أَوْ مَا دُونَ الصَّفْرِ، أَي: أَنْ رَصِيدُهُ مَدِينٌ، إِذَا
 تَحَدَّثْنَا بِلُغَةِ الْمَصَارِفِ.

وَقَدْ يَمُوتُ إِنْسَانٌ آخِرَ شَابًا، لَكِنْ رَصِيدُهُ فِي سَنِيهِ الْقَلَائِلَ بَعْدَ سَنِّ التَّكْلِيفِ حَافِلٌ
 عَامِرٌ بِجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ.

يَقُولُ صَاحِبُ الْحَكْمِ: رُبَّ عَمْرٍ اتَّسَعَتْ أَمَادُهُ، وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ، وَرَبَّ عَمْرٍ قَلِيلَةٌ

(١) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي «الصَّغِيرِ» وَالْأَوْسَطِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ.

(٢) صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِرَقْمِ ٥٦٧٨.

آمادُهُ، كثيرةٌ أمدادُهُ، مَنْ بُورِكَ له في عمره أَدْرَكَ في يسير من الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة.

وإذاً يستطيع المرء أن يطيل عمره بمقدار ما يُفوق إليه من عبادة الله تعالى، والإحسان إلى خلقه، وكلما توافر لعمله الإخلاص والإتقان، كان فضله وأجره أعظم عند الله تعالى.

العمر الثاني للإنسان؛ الثناء عليه بعد موته:

وكذلك يستطيع الإنسان الذي رُزِق التوفيق في إنفاق وقته أن يطيل عمره، ويمد حياته إلى ما شاء الله بعد موته، فيحيا وهو ميتٌ، ويؤدّي رسالة للأحياء وهو مقبور بما ترك من آثارٍ نافعةٍ. وإنما يكون ذلك إذا ترك وراءه ما ينتفع الناسُ به بعده من علم نافع، أو عمل صالح، أو أثر طيب أو سُنّة حسنة يُقتدى بها، أو مؤسسة خيرية ظلت تُؤتي ثمارها من بعده، أو ذرية صالحة أحسن تربيتها فكانت امتداداً لحياته وحُسن سيرته، وفي هذا روى مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(١). وفي حديث آخر تضمّن تفصيلاً لهذه الثلاث: «إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، أَوْ وَلَدًا صَالِحًا أَوْ مَصْحَفًا وَرَثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ تَلْحَقُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ»^(٢).

وأخرج مسلم^(٣) في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وفي القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ﴾^(٤).

(١) صحيح مسلم برقم ١٦٣١.

(٢) رواه ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي، سنن ابن ماجه برقم ١٩٨.

(٣) برقم ١٠١٧.

(٤) سورة يس، الآية: ١٢.

وقال الله تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا الْإِنْسَانَ بِوَعْدِهِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١).

والناس متفقون على أنّ الذكر الحسن الذي يتركه الإنسان بعد موته يُعتبر عُمرًا آخر له: عُمرًا غير محدودٍ بعد عمره المحدود. يقول المتنبّي:

ذِكْرُ الْفَتَى عُمُرُهُ الثَّانِي، وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ، وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ
وَيَقْتَبِسُ شَوْقِي هَذَا الْمَعْنَى فَيُصَوِّغُهُ وَيُقَدِّمُ لَهُ بِهَذِهِ الصُّورَةَ الْحَيَّةَ، حَيْثُ يَقُولُ فِي
رثاء مصطفى كامل:

دَقَاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقٌ وَثَوَانٍ!
فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمُرٌ ثَانٍ
ولا عجب أن كان من دعاء أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِي
لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ (٢). وَفَرَّقَ كَبِيرٌ بَيْنَ مَنْ يَمُوتُ وَالْقُلُوبُ عَلَيْهِ وَنَهَى، وَالْأَعْيُنَ
عَلَيْهِ بَاكِئَةً، وَالْأَلْسِنَةَ كُلَّهَا تُثْنِي عَلَيْهِ بِالْخَيْرِ وَتَدْعُو لَهُ بِالرَّحْمَةِ، وَمَنْ يَمُوتُ وَلَا تَبْكِي
عَلَيْهِ عَيْنٌ، وَلَا يَحْزَنُ لِفِرَاقِهِ قَلْبٌ، وَلَا يَتْرَحَّمُ عَلَيْهِ لِسَانٌ، شَأْنُ الَّذِينَ عَاشُوا فِي
الْحَيَاةِ سَلْبِينَ، أَوْ ظَالِمِينَ مُتَجَبِّرِينَ، كَذَلِكَ الَّذِي قَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ:

فَذَاكَ الَّذِي إِنْ عَاشَ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ وَإِنْ مَاتَ لَمْ تَحْزَنْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهُ!
وكالذين قال الله فيهم: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾
وَنَعَمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَلَکِهِنَّ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا
كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (٣).

وكثيراً ما يموت هؤلاء، ولا تموت معهم مظالمهم وآثامهم، أو كفرهم
وضلالهم، فقد ورثوه تلاميذ وأتباعاً لهم، يقتفون آثارهم جذوة القذّة بالقذّة فهم
يزيدون في لعنتهم.

وإذا كان من سنّ سنّة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، فإن من
سنّ سنّة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، وهو ما ثبت عن

(٣) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ - ٢٩.

(١) سورة القيامة، الآية: ١٣.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٤.

رسول الله ﷺ^(١) وإذا كان مَنْ تركَ علماً نافعاً، لم ينقطع عمله الصالح، فإنه مَنْ تركَ أثراً سيئاً، وفكراً مُضللاً، لم ينقطع عمله الطالح.

وما أنكد حظ أولئك الذين وَاَرَاهُمُ التَّرَابُ، ولم تزل أعمالهم الآثمة، أو أقوالهم الباطلة، أو أفكارهم الضالة المضلة المتمثلة في كتب، ومقالات أو أفلام وتمثيلات، أو شرائط ومسجلات؛ تسري وتعمل عملها في إفساد العقول والقلوب عمل النار في الهشيم.

وهذا ما جعل الصالحين يقولون: طوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، وويل لمن يموت وذنوبه باقية من بعده أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار، جهنم يصلونها وبئس القرار.



البحث الرابع:

الغفلة وخطرها في حياة الإنسان

والغفلة مرضٌ يُصيبُ عقلَ الإنسان وقلبه، بحيث يفقد الحسَّ الواعي بالأحداث، واختلاف الليل والنهار، ويفقد الانتباه اليقظ إلى معاني الأشياء، وعواقل الأمور، فهو يعنى بالصّور لا بالمعاني، وبالظواهر لا بالحقائق، وبالقشور لا باللباب، وبالبدائيات لا بالنهايات.

والقرآن الكريم يُحذر من الغفلة أشدَّ التحذير، حتى إنه يجعل أهلها حطبَ جهنم، ويجعلهم أضل سبيلاً من الأنعام العجاوات بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢).

(١) في صحيح مسلم برقم ١٠١٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

ويُخاطب الرسول ﷺ فيقول: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّنَا فِي نَسِيكَ تَصْرُعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْفُؤَادِ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (١).

وفي آية أخرى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٢).

ويدين القرآن أولئك الذين يهتمون بظاهر العلم دون حقيقته ولَبِّهِ، فيقول: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣) يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٤).

ومن البلية حقاً أن تمرّ بأمتنا الأحداث تُزَلِّلُ الجبالَ، فلا تعتبر ولا تتغير، ولا تُحرك سواكِنها، كأنما هي مسرحية تُمَثَّلُ، أو تمثيلية تُؤدَّى.

ومن هنا كان من دعاء أبي بكر رضي الله عنه: «اللهم لا تدعنا في غمرة، ولا تأخذنا على غرة، ولا تجعلنا من الغافلين».

وكان سهل بن عبد الله يقول: اخذر صحبة أصناف من الناس: القراء - يعني العلماء - المداهنين، والمتصوفة الجاهلين والجبايرة الغافلين.

التسويق وخطره على الإنسان:

وثمة آفة أخرى من أشد الآفات خطراً على انتفاع الإنسان بيومه وحاضره، وهي التسويق والتأجيل، حتى تكاد تُصبح كلمة «سوف» شعاراً له وطابعاً لسلوكه.

قيل لرجل من عبد القيس: أوصنا؟ فقال: اخذروا سوف.

وقال آخر: سوف جند من جند إبليس! لأنها تُحبط الاجتهاد.

فمن حقّ يومك عليك أن تعمّره بالنافع من العلم، والصالح من العمل، ولا تسوّف إلى غد، حتى يفلت منك حاضرُك فيصبح ماضياً ولا يعود أبداً.

فعليك أن تزرع في يومك لتحصد في غدك، وإلا ندمت حيث لا ينفع الندم.

فما لك يوم الحشر شيء سوى الذي تروذته قبل الممات إلى الحشر

(٣) سورة الروم، الآيتان: ٦ ، ٧.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

إذا أتت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر
وقال الإمام الحسن البصري: إياك والتسويق، فإنك بيومك، ولست بغدك،
فإن يكن غدك، فكن في غدك كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما
فرطت في اليوم.

آفات التسويق في إنجاز الأعمال:

وفي التسويق، وتأخير واجب اليوم إلى الغد آفات.

أولها: أنك لا تضمن أن تعيش إلى الغد!

دعا أحد الأمراء رجلاً صالحاً إلى الطعام، فاعتذر بأنه صائم، فقال الأمير:
أفطر وضم غداً، قال: وهل تضمن لي أن أعيش إلى الغد.
وليت شعري من يضمن لأحد أن يعيش إلى غده، والموت يأتي بغتة وهو يأتي
بأسباب شتى؟ وقد قال الشاعر الصالح:

تزوّد من التّقوى فإنك لا تذرِي إذا جنّ ليلٌ؛ هل تعيش إلى الفجرِ
فكم من سليم مات من غيرِ علّةٍ وكم من سقيم عاش حيناً من الدهرِ
وكم من فتى يمسي ويصبح آمناً وقد نسجت أكفانهُ وهو لا يدري
وموت الفجأة في عصرنا أكثر منه في أيّ عصرٍ مضى. برغم تقدّم الطبّ والعلم،
ولكن الطبّ لم يمنع الموت بالسكّنة والذّبحه وغيرها. والعلم لم يمنع الموت بسببِ
الحوادثِ التي لا تُحصى كلّ يومٍ من جراء أدوات الحضارة؛ السيّارات والطّيّارات
والآلات والأجهزة الميكانيكة والكهربائية وغيرها، بل العلم هو الذي هيأ الموت
بهذه الأسباب، حيث كان الإنسان قبل عصر الصّناعة في أمانٍ منها.

ثانياً: إنك إن ضمنت حياتك إلى الغد فلا تأمن المعوقات من مرضٍ طارئ، أو
شغلٍ عارض، أو بلاءٍ نازل؛ ولهذا كان الحزم أن تُبادر إلى فعل الخيرات، وأداء
الواجبات، وكان العجز أن تسوف وتؤجل حتى تفوتك الفرصة، وتشكو من الغصّة
كما قال الشاعر:

ولا أَوْخِرُ شُغْلَ الْيَوْمِ عَنْ كَسَلٍ إِلَى غَدٍ إِنَّ يَوْمَ الْعَاجِزِينَ غَدٌ
وقال آخر:

عليك بأمرِ اليومِ، لا تنتظرُ غداً فَمَنْ لَغِدٍ مِنْ حَادِثٍ بِكَفَيْلٍ
وقد وعظ النبي ﷺ رجلاً فقال له: «اغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ،
وَصِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ
فَقْرِكَ»^(١). وقال أحد العلماء لبعض الشباب: اعملْ قَبْلَ أَلَّا تَسْتَطِيعَ أَنْ تَعْمَلَ، فَأَنَا
أبْنِي أَنْ أَعْمَلَ الْيَوْمَ فَلَا أَسْتَطِيعُ.

سبب الزمان حرام:

ومن الآفات المحذورة، والسلبيات العائقة: إلقاء اللوم على الدهر، ودوام
الشكوى، من ظلم الزمان، وقسوة الأيام، حتى إن بعضهم ليتصور الزمان أو يصوره
خصماً يضطهده، أو عدواً يترتب به، أو حاكماً يعاقب البريء، ويدلل المُسيء،
ويتحيز لزيد ضد عمرو، بلا سبب إلا اتباعاً للهوى أو متصرفاً أعمى يضرب ضربات
عشواء، تصيب مرة وتخطيء مرات. وهذا كله من آثار النظرة الجبرية التي يُحاول
الأفراد والمجتمعات أن يُبرئوا فيها أنفسهم، ويتهربوا من تحمّل التبعة عن أعمالهم
وأخطائهم، وأن يُحمّلوا وزرها لغيرهم، فيلقونها بعضهم على بعض، أو يلقوها على
الزمان، أو القدر، أو الحظ، أو الظروف، أو غير ذلك.

وكان الواجب عليهم أن ينظروا فيما نزل بهم من نعمة، وما سلب منهم من نعمة،
ويحللون تحليلاً أعمق من النظر السطحي، يربط المسببات بالأسباب، والنتائج
بالمقدمات، وفقاً لسنن الله تعالى في خلقه، فالزمن ليس إلا وعاء للأحداث التي
يجريها الله حسب نواميسه وسننه، وهذا معنى الحديث الصحيح الذي قاله النبي ﷺ:
«لَا تَسْبُوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ»^(٢). أي: هو واضع السنن ومُجريها.

ولمّا انكسر المسلمون في أحد، ومعهم رسول الله ﷺ واستشهد منهم سبعون من

(١) الجامع الصغير برقم ١٠٧٧.

(٢) صحيح مسلم برقم ٢٢٤٦.

أبطال الصحابة، وتساءلوا عن سبب ما أصابهم من قرح وبلاء؟ كان الجواب القرآني: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلَتِهَا قُلْتُمْ أَنَّ هَذَا قَوْلٌ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

والقرآن يقرر هذه القاعدة العامة حين يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢).

ومن هنا كان الأولى أن يرجع الناس على أنفسهم باللائمة، مُحاولين تقويم العوج، وإصلاح الفساد، بدل لوم الدهر، وعيب الزمان، كما قال القائل:

إِنَّ الْجَدِيدَيْنِ فِي طُولِ اخْتِلَافِهِمَا لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ
وقال غيره:

نَعَيْبُ زَمَانِنَا وَالْعَيْبُ فِينَا وَمَا لَزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا
وَنَهَجُ ذَا الزَّمَانِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ بِنَا هَجَانَا
ولا يخفى أن بعض الشعراء والأدباء يغلقون تمردهم على فساد المجتمع وجور الحكام، بالشكوى من الزمان، وما يقصدون بالزمان إلا أهله وأصحاب السلطان فيه، كقول أحدهم:

سَأَلْتُ زَمَانِي وَهُوَ بِالْجَهْلِ مُوَلَّعٌ وَبِالسُّوءِ مَزْهُوٌّ، وَبِالْحُبْنِثِ مُخْتَصَّصٌ
فَقُلْتُ لَهُ: هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى الْعِلَاقِ؟ فَقَالَ: سَبِيلًا: الْجَهَالَةُ وَالنَّقْصُ
ولهذا يحكون عن بعض جبابرة الملوك أنه قال: الزمان هو السلطان، فمن سبَّ
الزمان فقد استوجب العقاب.

إن واجب المؤمن إذا نزل به ما يكره، أن يرجع إلى نفسه فيما سبها، وإلى ربه، فيقرع بابه بالتوبة والاستغفار. ويقول ما قال أبواه آدم وحواء حين أخرجوا من الجنة:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

وما قاله الربانيون حين استشهد منهم من استشهد: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَدْمَانَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ (١) (٢).

وعلى هذا المنهج السديد، والسبيل الرشيد يجب علينا أن نربي أولادنا ونأشيتنا ومراهقيننا، وفتياتنا، فلا ندعهم يضيعون أعمارهم بهدر أوقاتهم التي هي رأس مالهم في الدراسة والتعليم، وفي العمل والتحصيل، فمن ربي على هذا ونشأ عليه كان من أكابر أهل زمانه علماء وعملاً وفضلاً وإحساناً.

فإلى هذا المنهج السديد والسبيل الرشيد ندعوكم أيها الآباء والأولياء والمرئون والمعلمون والمصلحون، لتكون أبحاثه ماثلة في أفكاركم وأفكار أفراد الأمة من الأبناء والبنات، والمراهقين والمراهقات، ومن الشباب والفتيات، ومن الرجال والنساء، فنحن جميعاً بأمس الحاجة إلى هذه البصائر التي نقلناها عن العلماء ذوي الخبرة والدراية والإدراك، وسطرناها على صفحات هذا الكتاب «أصول تربية الأبناء والبنات في ضوء القرآن والسنة».

نسأل الله تعالى أن ينفع بها عباده المتقين، وأن يدخر لنا ثوابها ليوم الدين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والحمد لله رب العالمين.



(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) الوقت في حياة المسلم للدكتور القرضاوي.

الخاتمة

يقول رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ: الْإِمَامُ رَاعٍ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»^(١).

ويقول رسول الله ﷺ: «كُلُّ إِنْسَانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَأَبَوَاهُ بَعْدُ؛ يَهُودَانِيهِ، وَيُنَصْرَانِيهِ، وَمَجَسَّانِيهِ، فَإِنْ كَانَ مُسْلِمِينَ فَمُسْلِمًا»^(٢).

فهذه الفطرة أمانة في أعناق مسؤوليها من الآباء والأمهات؛ فلا يجوز لمسلم أن يضيع هذه الأمانة التي هي أعلى ما في هذا الوجود ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْبَئِثُ الْقَتِيمُ﴾^(٣).

وهذه الرعاية التي فرضها الله تبارك وتعالى على عباده، هي من أجل هذه الأمانة لحفظها والقيام بحقوقها.

وهذا الكتاب في جميع أبحاثه تفصيل لبيان واجبات تلك «الرعاية»، وحقوق هذه «الأمانة».

والآباء والأمهات هم أهل لتلك الواجبات، والأبناء والبنات هم أصحاب حقوق تلك الأمانة.

(١) صحيح البخاري برقم ٧١٣٨، وصحيح مسلم برقم ١٨٢٩.

(٢) صحيح مسلم برقم ٢٦٥٨/٢٥.

(٣) سورة الرُّوم، الآية: ٣٠.

والحمدُ لله الذي تتمُّ بنعمتهِ الصّالحاتِ والبركات، والقيام بالواجبات، وتحقيقِ
الطيبِ من الأمنيات... .



مصادر أبحاث الكتاب ومراجعتها

- ١ - القرآن العظيم، وتفسيره: تفسير القرطبي - وتفسير ابن كثير:
- ٢ - السنّة النبويّة، وشرحها: صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري، للحافظ ابن حجر.
- صحيح مسلم مع شرحه للإمام النووي.
- سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود.
- سنن الترمذي مع شرحه تحفة الأحوزي.
- سنن النسائي.
- سنن ابن ماجه.
- مسند الإمام أحمد.
- صحيح ابن حبان «الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان».
- والمستدرک للحاكم.
- ومسند أبي يعلى الموصلي.
- والمصنف لابن أبي شيبة.
- صحيح الجامع الصغير.
- وضعيف الجامع الصغير.
- والموطأ للإمام مالك.
- وصحيح شعب الإيمان «للمؤلف».
- ٣ - كتب التربية:
- بناء البيت السعيد في ضوء الإسلام/ للدكتور مقداد يالجن - ط دار المريخ.
- التربية الإسلامية كيف نرغبها لأبنائنا/ للدكتور سراج محمد عبد العزيز وزان - ط رابطة العالم الإسلامي.
- تربية الأطفال في رحاب الإسلام في البيت والروضة/ محمد حامد الناصر، وخولة عبد القادر درويش - ط مكتبة السّوادي.
- تربية الأولاد في الإسلام/ عبد الله علوان - ط حلب.

- التربية الإسلامية وفلاسفتها/ محمد عطية الأبراشي - ط البايي الحلبي .
- تربية الطفل قبل المدرسة/ سعد مرسي أحمد، وكوثر حسين كوجك - ط الدار العربية عمان .
- التربية الإسلامية/ للدكتور أحمد فؤاد الأهواني - ط دار المعارف .
- تربية المراهق بين الإسلام وعلم النفس/ للدكتور محمد السيد محمد الزعبلوي - ط مؤسسة الكتب الثقافية ومكتبة التوبة .
- رعاية الطفولة في الإسلام/ للدكتور محمد رفعت رمضان - ط دار الكتب أبو ظبي .
- الأخلاق الإسلامية وأسسها/ عبد الرحمن حسن حبنكة - ط دار القلم .
- صورة الطفولة في التربية الإسلامية/ أحمد محمد الزبادي وإبراهيم ياسين الخطيب - ط دار المستقبل للنشر عمان .
- الطفولة في الإسلام مكانتها وأسس تربية الطفل/ محمد قطب - ط دار الشروق بيروت .
- الطفل في الشريعة الإسلامية/ للدكتور محمد صالح - ط وزارة المعارف الرياض .
- معالم الشريعة الإسلامية/ للدكتور صبحي الصالح - ط دار العلم للملايين .
- منهج التربية النبوية للطفل/ محمد نور سويد - ط دار ابن كثير .
- الوقت في حياة المسلم/ للدكتور القرضاوي .
- ٤ - كتب الفقه الإسلامي :
- المغني/ للإمام عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي .
- القواعد في الفقه الإسلامي/ للإمام ابن رجب الحنبلي .
- المحلى/ لابن حزم الأندلسي .
- بداية المجتهد/ للإمام ابن رشد .
- قوانين الأحكام الشرعية/ للإمام ابن جزى الغرناطي المالكي .
- موسوعة الفقه المالكي «للمؤلف» ط دار الحكمة .
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام/ للإمام العز بن عبد السلام .
- المجموع/ للإمام محيي الدين التتوي .
- بدائع الصنائع/ للإمام الكاساني الحنفي .
- جامع أحكام الصغار/ للإمام الأسروشي .

- إحياء علوم الدين/ للإمام الغزالي .
- المفضل في أحكام المرأة والبيت الإسلامي في الشريعة الإسلامية/ للدكتور عبد الكريم زيدان .

